كلمات في التقدّم من المناولة المقدّسة، الجزء الأول

المتروبوليت سابا (اسبر)

حتّى سبعينيّات القرن الماضي ما كان الأرثوذكس يمارسون المناولة المتواترة. طبعاً لأسباب عديدة، منها الجمود الليتورجي الذي تسبّب به تاريخ طويل من الاضطهاد المستمر. انقطع التعليم وساد الجهل، فصارالمفهوم السائد يقصرالمساهمة في القدسات على مرّات قليلة في السنة، كالأعياد الكبرى. استند المؤمنون في ممارستهم هذه إلى قناعة مفادها عدم استحقاق الإنسان للتقدّم من هذا السرّ المرهوب.

لا شكّ في أنّ هذه القناعة عندهم كانت نابعة من توقير شديد للسرّ الإلهي وإدراك أنّهم خطأة. وساهمت التقوى الشخصيّة التي وسمت المجتمع القديم في اقتناعهم بعدم استحقاقهم. هذا دفع المؤمنون إلى أن يتهيأوا بجدّية تامّة لمساهمة هذا السرّ المقدّس. وبما أنّ المؤمنين لا يستطيعون القيام بهكذا تحضير بشكل مستمر فإنّهم كانوا يمتنعون عن التقدّم من الكأس المقدّسة على أن يتقدّموا وهم غير مستعدين كما يجب.

يضاف، إلى ما ذكرنا بإيجاز، الجهل بسرّ الإفخارستيّا ومكانته في حياة المؤمن ومسيرته الروحية، وكذلك مفهوم الكنيسة وشركة المؤمنين.

مع بدايات اليقظة الليتورجيّة التي عمّت كنائس عديدة في النصف الثاني من القرن العشرين، بدأ المفهوم يتغيّر تحت تأثير التعليم والوعظ، بخاصّة من الإكليروس الذي كان قد درس اللاهوت في معاهد جامعيّة. فبتنا نشهد اهتماماً بالمناولة المقدّسة، وصار التقدّم المتواتر هو السمة الدارجة عند المؤمنين. ولكن بتنا نشهد أيضاً تهاوناً عظيماً في الاستعداد للسرّ العظيم.

لا شكّ في أنّ طريقة نقل المؤمنين من ممارسة إلى أخرى معاكسة لها احتاج إلى بذل جهود هائلة، لكنّه مع الأسف لم يأخذ بالأهميّة ذاتها قضية الاستعداد والأهلية

اللازمتين. فتمّ التركيز على المفهوم الكنسي السليم للمناولة المتواترة دون إعطاء الاستعداد والتحضير الشخصي ما يستحقه من وعظ وتربية وجهد.

لقد أعطى التعليم الجديد كلّ الاهتمام للناحية اللاهوتيّة والاستشهاد بضرورة المناولة المتواترة وعدم الامتناع عنها، استناداً إلى لاهوت الافخارستيّا ونصوص القدّاس الإلهي نفسها التي تعلن أنّ الذبيحة تقام من أجل جميع الحاضرين. أمّا حياة التوبة فأُهملت وهذا ما أوصلنا إلى واقع نرى فيه جموعاً تتقدّم من المناولة في كلّ قدّاس تشارك فيه، فيما الغالبية العظمى منها لا تمارس سرّ التوبة والاعتراف على الإطلاق ولو مرّة في السنة.

ثمّة تمييز لازم وضروري بين التعليم النظري والتربية التي توصل إلى عيشه بملئه. فامتلاك معرفة أمر ما، لا يعني عيش هذا الأمر واختباره على المستوى الكياني. فأن أعرف، على سبيل المثال، رأي الإنجيل في الغفران لا يعني أنّني صرت مختبراً لهذا الغفران. والأمر يسري على كلّ الفضائل الأخرى. عليَّ إذن، أن أتدرّب تدريجيّاً حتّى أصل إلى مستوى الغفران المسيحي.

كثيرون منّا أهملوا أو نسوا أهميّة التربية العمليّة. وهنا أذكر أنّ كثيرين باتوا يقولون بأنّنا أبناء الله وأنّنا أحرار بالمسيح، وهذا تعليم إنجيليّ حقيقيّ. لكن محبّة الله التي نتكلّم عنها لم تقدنا إلى التصرّف كأبناء له تعالى، وفي الوقت ذاته أقصت خوف الله من قلوبنا، فلم يعد من رادع للخطيئة يمنعها من التملّك فينا. ولذلك نشهد اليوم انحطاطاً في الأخلاق وانهياراً للبيوت.

يقول بولس الرسول لمّا كنت طفلاً كنت آكل ماهو للطفل ولكن لمّا كبرت صرت آكل ما هو مناسب للكبير. إهمال هذه القاعدة الأساسيّة في أوساطنا الكنسيّة أوصلنا إلى ممارسات روحيّة شكلياً. وبتنا نتكلّم عن الفضيلة ناسين التدريب المتعب الذي علينا أن نعيشه يوميّاً حتّى نصل إليها.

في التربية تدرّج واضح وما من أحد يمتلك الفضائل بمجرّد معرفتها نظريّاً. ولا يشذّ عيش التوبة عن هذه القاعدة ، إن لم يكن مستحيلاً عيشه من دونها. من هنا علينا الانتباه إلى أهمية تحضير نفوسنا وأجسادنا للمشاركة الكاملة في سرّ الإفخارستيّا، ولكن بمقدار استعدادنا وعيش توبتنا شخصيّا. هذا أمر لا قاعدة محدّدة إلزاميّة فيه تسري على جميع المؤمنين، في جميع الأماكن وفي سائر الأزمان والظروف. هنا يخدم سرّ التوبة والاعتراف مسيرتنا الروحيّة.

ويتحدّد لكلّ مؤمن بواسطة أب الاعتراف الذي له الكلمة الفصل عند المؤمن في إرشاده متى يتقدّم من المناولة ومتى يبتعد. وقد يلجأ الأب الروحي هذا أحياناً إلى تأديب المؤمن بمنعه عن سرّ الإفخارستيّا لفترة من الزمن بغية رفع مستواه الروحي، أو حثه هلى توبة فعلية أو مساعدته على أن يعرف خطاياه، إلخ، وقد يمنعه تأديباً له لأنّه لا مبالٍ أو لا يطيع وصية إنجيليّة أو أكثر. هذه أمور لا تتحدّد في مقالة عامّة، بل في اعتراف وإرشاد شخصيّين بين المؤمن وأب الاعتراف.